النمط المعماري للمدينة الصحراوية ووظائفه الاجتماعية

(قراءة أنثروبومجالية لقصور توات قصر تمنطيط بأدرار نموذجا)

ثيافة الصديق
جامعة تيارت (الجزائر)
فاتحي عبد النبي
جامعة أدرار (الجزائر)

Résumé:

Dans le territoire de « Touat » au sud oust Algérien, on trouve ensemble de regroupement d'habitations éparpillés, ci et la' comme archipel dans une mère de sable, appelle « **El ksosour** ». C, est un modèle d occupations humain au sud Algérien. On qualifié aussi de architecteur en terre ou écologique de fait de son adaptation à l environnement saharien.

Plus que cela, c'est une architecture fonctionnelle, c'est à dire, que dans tout aspects, elle présente une fonctionnalité précise, dans quasiment tout les fonctionnalités, nous posons la problématique suivante: le type de bâti Saharien et ses fonctionnalité sociale « étude pratique au Ksar Tamentit-Adrar ».

مقدمة:

العمارة ظاهرة اجتماعية، حيث يوجد عاملان أساسيان في كل وضع معماري هما: متطلبات الجماعة وإرادة الفنان، باعتبار العمارة رمزاً اجتماعيا ولفهم الرمز يتطلب منا فهم التفاعل، ذلك "أن العملية التصميمية للمعماري هي نتاج احتياجات وظيفية ومبادئ جمالية ومعاني رمزية واجتماعية معينة، وبالتالي فالفعاليات الحياتية والممارسات الاجتماعية تبقى خلفية أساسية لتلك الصورة المادية للعملية التصميمية، وعليه فالعلاقات الاجتماعية ودور الفرد في الإنتاج المعماري ضمن الحدود التي ترسمها بصورة أو بأخرى تصورات الجماعة"[1]، فالعمارة انعكاس لصورة ثقافية تمثل هذا المجتمع أو ذاك تجسدها الخبرة المهنية والقدرة الإبداعية للمعمار، كما أن ارتباط العمارة بالمجتمع يتضمن علاقتها بالدين والثقافة، فالدين منذ القدم كان رابطة اجتماعية وثيقة تجمع بين الناس والمعابد ومنها المساجد التي كانت أماكن للاجتماعات وممارسة الشعائر الجماعية، وقد أثبت ذلك أب السوسيولوجيا أميل دوركايم بقوله: إن العمارة رمزا اجتماعيا ولفهم الرمز يتطلب منا فهم التفاعل مابين شكله المادي ومدلولاته الاعتبارية الجمعية والتي تمثل العمارة القصورية التقليدية نماذجها الأساسية.

من هنا ارتأينا إلى دراسة العمارة القصورية الصحراوية بالجنوب الغربي الجزائري من وجهة سوسيومجالية، لذا جاء البحث تحت عنوان" **النمط المعماري للمدينة الصحراوية ووظائفه الاجتماعية قراءة أنثروبومجالية لقصر تمنطيط– أدرار**"، وذلك للكشف عن مدى العلاقة المترابط بين المجال والوظيفة الاجتماعية التي يؤديها ذلك المجال، مثلما هي متوافقة مع البيئة الصحراوية من خلال تركيبتها العمرانية ومواد بنائها المحلية(الطين والحجارة)، فمجالاتها منسجمة أيضا أشد الانسجام مع سلوك وثقافة المجتمع الواحي سواء كان هذا المجال خاص أو عام.

[1] نظير أبو عبيد، **المشهد المكاني كمفهوم وسلوك بيئي في تحليل التواصل ما بين العمارة والمجتمع**، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد248، لبنان، 1999، ص148.

التعريف بمجال الدراسة: مجال ومجتمع الدراسة هو قصر تمنطيط الواقع بالجنوب الغربي الجزائري والتابع أداريا لولاية أدرار، ويبعد عن مقر الولاية حوالي 15 كلم جنوبا على الطريق الوطني رقم6 المتجه إلى رقان، يضم ما يقارب 4000 نسمة من السكان تقريبا موزعة على سبعة فضاءات من قصور وقصبات وأحياء جديدة، وبه مقر البلدية "**تمنطيط**"، ولمدينة "**تمنطيط**" عراقة في التاريخ القديم والحديث فهي عاصمة القصور الصحراوية منذ دخول الإسلام إلى منطقة توات حتى القرن التاسع عشر وعرفت بشخصية دينية علمية مؤثرة في تاريخ توات وهي شخصية الشيخ محمد بن عبد الكريم الماغيلي الذي حارب اليهود في إقليم توات أبان القرن الخامس عشر وقام بحركة أصلاحية هناك وصل صداها إلى منطقة غرب أفريقيا.

وللتذكير، أن إقليم توات الممتد من وزاوية الدباغ القريبة من مدينة **تيميمون** شمالا حتى فقارة الزوى (أحدى قصور من منطقة عين صالح بولاية تمنراست)جنوبا، يحتوي هذا الإقليم على مجموعة من التجمعات السكنية المتناثرة هنا وهناك أشبه بالأرخبيل من الجزر المتناثر في البحر تسمى "**القصور**"، تزيد عن ثلاث مئة 300 قصرا. وقد نشأت هذه المدن والقصور من وظيفة المحطات الكبرى للقوافل التجارية العابرة للصحراء في العصور السالفة، وأخذت شكل المدينة/الواحة لأن الماء والنخيل يشكلان قاعدتها الأساسية.

وبصفتان من سكني القصور، فقد وقع اختيارنا عليه للأسباب الآنفة الذكر، ناهيك عن أنه لازال يحتفظ بمعالمه الأثرية العمرانية من أبراج وقصبات لذلك يقصده السواح وبه دار للسياحة والتراث مثل قصر تيميمون.

وقد جاءت هذه الدراسة في أطار بحث ميداني قمنا به في صيف2008، مستخدمين المنهج الأنثروبولوجي وبذلك وظفنا تقنيتين أساسيتين من تقنياته وهي الملاحظة المباشرة والمقابلة النصف الموجهة، زيادة على ذلك أننا من سكنى قصور المنطقة

أنماط العمارة ومراحل تطورها بقصر تمنطيط :

العمارة الإفريقية: ظهر هذا النوع من العمارة في المرحلة الجيوتيلية (100 قبل الميلاد) فالجيتوليون الذين استوطنوا إقليم توات قديما، لاشك أنهم أسسوا حضارة وأقاموا مدن ونحتوا سماتها المعمارية المميزة، والجيتوليين حسب **هيرودت** هم سكان بيض أصحاب المهن، أولائك السكان الذين كانوا يسوقون الذهب من شمال إفريقيا نحو السودان، وهذا حسب بعض المؤرخين الإغريقيين والرومان أمثال **هيرودوت**. ويرى الأستاذ ندير معروف"أن السكان الأصليين للمنطقة هم جيوتيلين كانوا قد تأثروا بعمارة السكان الأفارقة لدليل انه وجد أصنام مماثلة على ضفاف واد النيجر"[2]، ومن سمات العمارة القصورية الشكل المخروطي والهرمي للأبراج والأضرحة وقد رأينا ذلك في قصر تمنطيط.

والمدن ظاهرة اجتماعية قديمة في الحضارة الإفريقية، فقد نشأت المدن الإفريقية منذ مئات السنين قبل تشهد الاستعمار الغربي، ونلاحظ أن تركز المدن القديمة كان غرب إفريقيا في المنطقة المتاخمة للصحراء الكبرى، ومن أمثلة ذلك مدينة "**كانوا**" في نيجيريا التي يبلغ عمرها أكثر من ألف عام وحضارة قبائل "**اليوروبا**"، وإذا نظرنا إلى البناء الاجتماعي لتلك المدن نجد إن العلاقات القرابية والعائلية هي الدعامة الأساسية للعلاقات الاجتماعية"[3]. وقد تأثرت العمارة القصورية بالعمارة السودانية نتيجة التلاحقات الحضارية الناتجة آنذاك عن الحركة التجارية الدؤوبة بين الحضارات الإفريقية والقصور الصحراوية.

العمارة البربرية: وهناك من يسميها "بالعمارة البرمكية"، تتموضع في مكان مرتفع تبنى من الحجارة والطين، من المواد المحلية التي تبنى بها القصور عموما وهي الطين والحجارة لكنها تختلف وتتميز في هندستها الداخلية وفضاءها الداخلي

[2] NADIR MAROUF, **Lecteur de l'espace oasien**, Paris : Sendabad,1980. P-39

[3] حسين عبد الحميد احمد رشوان، **المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري**، المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية، الطبعة السادسة ،1998،ص168.

فهي تتكون من أزقة شديدة الضيق والتعرج، ومساكنها متصلة مباشرة بالسور الخارجي وتخلوا من الرحبة التي تتوسط القصر وبها أبراج ركنية في الزوايا، في ومن أمثلتها:قصر بوعلي(بلدية زاوية كنتة[4]) وقصور:سالي، تيمادانين، تاوريت (بلدية رقان) وتظهر فيها السمات الدفاعية بشكل بارز.

العمارة اليهودية: تكون في الغالب ذات شكل دائري، تبنى من نفس بناء المواد المحلية الموجودة(الحجارة+الطين) وتختلف في شكلها عن العمارة البربرية بشكلها الدائري والبرج الواحد الذي يتوسطها وهي عبارة عن قلعة وتتموضع فوق مرتفع، تتكون من أزقة رئيسية وأخرى ثانوية ومساكنها بها حجرات تحت أرضية (دهاليس) يوجد هذا النوع بقصر "تاظولت" بزاوية كنتة وفي تمنطيط لاحظنا هذا النوع بقصر أولاد ميمون.

وقد عرفت تمنطيط بعد القرن الأول ميلادي(100م– 600م) هجرة بعض العناصر اليهودية وذلك اثر نكبتهم على يد القائد الروماني(ثراجا traga) وبنوا قصورا ونشروا ديانتهم في أواسط السكان الأصليين وقد عثر في عام 1905 شكل صنم يعود لليهود وفي إطار الأبحاث الأثرية التي كانت تقوم بها فرنسا[1].

ومن الثابت تاريخيا أن قصر أولاد همالي وقصر أولاد ميمون وهما إحدى قصور تمنطيط أسسها اليهود مابين الفترتين التاريخيتين2 و6م، و يدل على ذلك المعبد اليهودي في قصر **أولاد همالي** الذي عثر به تسجيل منحوت على حجر، قد يكون نحت على الأصح سنة 517م، وقد حول المعبد في القرن 16م إلى مسجد من طرف القبائل العربية التي سكنت أولاد همالي،كما وجد في مدينة تمنطيط حجرة مكتوب عليها بالعبرية في احد المنازل بقصبة أولاد داود[5].

العمارة العربية الإسلامية: لقد عني المسلمون بتشييد المدن وبناء الأمصار في كل أقليم أقاموا فيه أو بلد فتحوه، فيطبعوه بطابعهم المعماري الإسلامي"ولقد اهتموا بالتدقيق في اختيار موقعهم وتخطيطها بل امتدت عنايتهم إلى التكوينات المعمارية بأشكالها الجمالية باعتبار أن الشكل يتبع الوظيفة"[6]. فللعمران في المنظور الإسلامي وجهان متكاملان، الأول هو الوجه الاجتماعي حيث تتأثر العمارة بالمجتمع ويتأثر بها، والثاني هو الوجه الخاص حيث تتأثر العمارة بالفرد ويتأثر بها.

زيادة على ذلك فالمدينة الإسلامية، ناتجة عن أسس مقدسة مثل، المدينة المنورة، مكة المكرمة، مدينة القدس، كربلاء في بغداد، لذا تشكل العبادة فيها المحور الأساسي في العلاقات الاجتماعية وبالتالي تتحكم في الشكل المعماري. "ولقد تميزت مدن المغرب العربي عن مثيلاتها في المشرق العربي بكونها ذات نشأة محدثة، ولم تقم إلا نادرا على بقايا مدن قديمة فأغلب المدن التي نشأة بالمغرب العربي كانت نواتها الأولى ذات أهمية دينية(ضريح، مسجد، زاوية....)، وإذا كانت مدن المشرق العربي خصت بتسمية ترجع إلى مؤسسها الأول أو المؤسسة من أجله، فالتجمعات المغاربية التي تبدأ تسميتها بكلمة"سيدي" عددها كبير، وهو أمر غير مألوف في المشرق العربي مثل(سيدي عقبة ببسكرة، سيدي لخضر بمستغانم، سيدي يوسف بأدرار، سيدي الحاج بلقاسم بتيميمون....الخ). بلدة "**تمنطيط**" قد استقطبت أغلب القبائل العربية التي نزحت إلى توات بصفتها كانت عاصمة القصور الصحراوية، سيما وان تلك القبائل شاركت في العملية التجارية، العامل الرئيسي في نشأة القصور. ومن أهم القبائل التي أثرت تأثيرا واضحا في عمارة تمنطيط هم المرابطون، ويمكن وضع كرنولوجية لمراحل تكوين هذا النوع من العمارة في "**تمنطيط**" خلال هذه الفترة.

---

[4] NADIR MAROUF، **l'imaginaire historiographique entre conjectures et realites** ، ou le probleme des sources , à propos de l'établissement humain en milieu saharien. Insaniyat, revue algérienne d'anthropologie et de sciences sociales N°2 AUTOMNE -1997، P159.

[5] بوعلالة جلول، **قصر تمنطيط دراسة أثرية ومعمارية**، مذكرة تخرج لنيل شهادة مهندس دولة في العمارة، قسم العمارة والآثار، الجزائر، سنة 2005، ص25.

[6] حسني عبد الحفيظ، **تخطيط المدن وعماراتها في الحضارة الإسلامية**، المدينة العربية، العدد113. مارس، أبريل2003، ص.41.

المرحلة الأولى:1146 –1147م : يقال"أن اللمتون أولاد الملك يوسف بن تاشفين حين انكسرت دولتهم بالمغرب والأندلس على يد العبيديين ومالكهم فجاؤوها فارين إلى أن بلغوا ارض توات ووجدوا بها الجدب فعرفوا إنها ارض أمان، فبنو فيها أول قصر لهم وهو قصر "**تايلوت**" ومعناه بالعربية المزود ثم بنوا قصرا ثانيا وهو أولاد يعقوب, ومن قبائل المرابطين قبيلة أولاد علي بن موسى فبنوا قصرا لهم سمي باسمهم وقبل أن يبنوا هذا القصر بنوا قصر "**بوصلاح**"، وأقاموا ضريح سيدي أمحمد بايوسف"[7]

المرحلة الثانية:1147–1316م : في1316 وصل إلى **تمنطيط** أولاد أمحمد الذين بنوا قصرا باسمهم, قيل أصلهم بربر، وفي نفس القرن– ق 14م"نزلت قبيلة أولاد داوود بن عمر الذين بنوا قصرا باسمهم إلى يومنا هذا. وكان أهل هذه القبيلة أهل شماخة وأنوفة وعزة ورياسة، وقصورهم الآن هي قاعدة أسواق تمنطيط، وبها الحدادون والنجارون والجزارون والدلالون والعطارون"[8].

المرحلة الثالثة:1316 –1438م : وفي 1430نزلت قبيلة أولاد يحي بن يدير بن عتيق التدلسي نسبة إلى عين تدلس بالشمال الجزائري وهو احد العلماء المشهورين وبنو قصرا باسمهم وكذلك قصر غم أقبور,تاهقة ,توفاغي, العلامة الولي الأشهر والقاضي العادل سيدي سالم العصموني،"كما أن المسجد القديم ب"**تاهقة** أسس من طرف العالم الكبير سيدي سالم العصموني سنة1459م. الذي عاصر الشيخ عبد الكريم المغيلي"[9]، ولقد عرفت مدينة تمنطيط في هذه الفترة نظاما دفاعيا يتماشى والتطور الحضاري الذي عرفته وهكذا أنشأت مراكز لتدريب الجيش ; ومخزن للسلاح يسمى " ***أكر بين***" ، وهو موجود إلى يومنا هذا وفي حالة جيدة وهي أكثر صلابة كما أن بإمكان الخيل أن تصعد إلى هذا السور و لها طريق معين لذلك, وتذكر الروايات أن المغيلي استعمل هذا المخزن للسلاح في حربه ضد اليهود"[10].

العمارة الحديثة: وقد ظهر هذا النوع من العمارة بعد حركة الخروج من القصر وبداية السكن خارج الأسوار مع دخول الاستعمار للصحراء سنة1900 ثم بعد سنة1962 ونظرة الدولة للمجال في أطار السياسة التنموية الشاملة وبالخصوص في برامجها الإسكانية مما كان له الأثر الواضح على المجال، ويمتاز هذا النوع من اللعمارة بالتشتت الفيزيقي، واتساع الأزقة الغير المغطاة والتي تسمح بدخول السيارة، وقد نشأ هذا الشكل من العمارة والفضاءات في قصر تمنطيط عبر المراحل التالية.

المرحلة الأولى 1900–1962: بعد 1962 عرفت المدينة تطورا جديدا باتجاه المحور مولاي العربي حيث أنشأة بعض المرافق الجديدة (دار البلدية، المدرسة، قاعة علاج... إلخ) لتعرف خلال سنوات الثمانينات إنشاء تجمع سكني جديد على الطريق الوطني رقم 06. من الجهة الشرقية. وخلال هذه الفترة تم إنشاء حي جديد غرب القصر كنتيجة لتوسع القصر يسمى حي **أقورار**.

---

[7] محمد بن أمبارك الطيب، **القول البسيط في أخبار تمنطيط**، (مخطوط)، تحقيق فرج محمود فرج، ص12

[8] نفس المصدر، ص13.

[9] وهو من مواليد ربيع الأول عام 790ه بمغيلة بضواحي تلمسان.نشا في بيت عريق الحسب والنسب وتلقى العلوم الدينية منذ حداثته إلى أن نبغ فيها ووصل إلى ارض توات, استقر به المقام بأولاد يعقوب في سنة 1482م وكان له الفضل الكبير في إنهاء التواجد اليهودي بالمنطقة التواتية، أنظر مقدم مبروك محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحية بأمارات وممالك أفريقيا الغربية في القرن الثامن والتاسع والعاشر للهجرة، دار الغرب للطباعة والنشر والتوزيع، وهران، وأنظر كذلك: أجوبة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي للأمير الحاج محمد بن أبي بكر أسقيا الكبير، أربعة أجزاء دار الغرب للطباعة والنشر، وهران،2002.

[10] بوعلالة جلول، مرجع سبق ذكره، ص22.

المرحلة الثانية 1975–1990: في هذه المرحلة عرفت مدينة تمنطيط أهم توسع في نسيجها العمراني وهذا من خلال استفادتها من بعض برامج السكنات حيث تشكل حي سيدي يوسف وحي مولاي العربي وهو أكبر حي في تمنطيط ،كما تم إنشاء مقر البلدية سنة 1985م وكذلك مدرستين للطور الابتدائي وبعض التجهيزات الإدارية و الاجتماعية.

2. فضاءات قصر تمنطيط ووظائفها الاجتماعية: لقصر تمنطيط فضاءات وأشكال معمارية متميزة كباقي المدن الصحراوية، هذه الفضاءات منسجمة إلى حد بعيد مع وظائف و بنية المجتمع الواحي القائم على التكافل الاجتماعي ومكيفة مع الظروف الطبيعية، شبيهة في تصميمها المعماري مع المدينة الإسلامية والمدينة العتيقة، وبالتالي جاءت وفية لمناخها ومنسجمة مع وظائفها الاجتماعية فنعتت بالمدينة البيئية والمدينة الوظيفية، لان سماتها المعمارية وفضاءاتها جاءت لتؤدي وظائف اجتماعية، وتتشكل من:

أولا: الفضاء المدنس:

المساكن: تلتف المساكن في كل المدن الصحراوية ملتحمة ومتشابكة حول بعضها البعض، متجمعة داخل سور، وهي متشابهة في ما بينها مساحتها لا تتجاوز 90م^2 كأقصى تقدير، وقد تتجمع داخل السور في شكل تراكمي، متشابكة ومتلاصقة مع بعضها البعض كخلايا النحل، مما يجعلها صعبة الوصف والدراسة ما لم توصف في إطارها العام وهو الحصن أو القصبة. ويلاحظ أن شكل الدور وشكل المنازل لم يدخل عليه أي تغيير طوال القرون الحالية، فهو في صورته الأولى امتدادا لما كان عليه في الماضي.

الأبراج: سمة معمارية بارزة اتسمت بها القصور الصحراوية ولازالت آثارها حتى اليوم، وهي عبارة عن مبنى ذو شكل هرمي واسع في القاعدة ويضيق في الأعلى يقع في زوايا القصر، يحتوي على سلالم بداخله و مزاغل لمراقبة العدو، وفي أسفلها مخازن لتخزين المحاصيل الزراعية والأملاك الجماعية.

وأما وظيفتها الأساسية تظهر من خلال الشكل المعماري الذي أخذته وهي الدفاع عن القصر ومراقبة الغزاة من بعيد حتى يتسنى الاستعداد له والاستنفار لملاقاته ويتناوب على الحراسة فيها الرجال ليلا ونهارا لا يفارقونها، وقيل لنا أن النساء هن كذلك كانوا يقمن المهمة الدفاعية فيه هذا الفضاء حيث كن يقمن بصب الماء الساخن من الأعلى على العدو.

السور: عُرفت المدينة القديمة بهذه السمة المعمارية وأخذت المدينة الصحراوية (القصور) حصة الأسد منها لعدم وجود جبال تحصينية بالمنطقة، والسور عبارة عن جدار عالي جداً ذو شكل دائري أو تربيعي أو مستطيل حسب نمط القصر والمدة الزمنية التي شيد فيها، يحيط بالمجمعات السكنية علوه يصل إلى ستة أمتار وقد يزيد عن ذلك، أما سمكه اليوم فليس بالشكل الذي تصفه لنا بعض كتب التاريخ، بكون عرضه يصل إلى مترين (2م) مما يسمح بمرور فارسين عليه جنبا بجنب، وقد كان بقصر **تمنطيط** هذا النوع من الأسوار، وقد كانت تمر فوقها الأحصنة ليلا ونهارا وذلك للحراسة وتتخللها الأبراج. وغلى جانب الوظيفة الدفاعية التي كان يؤديها هناك وظيفة اجتماعية تتمثل في لم شمل العائلات والديار في مجال معين يوحي بالتضامن والعصبية القصورية ضد كل غريب ويوحي كذلك بما ترسخ في خيال الرجل الصحراوي من طبيعية العدوانية إقصاء كل غريب عن القصر، والتعصب للجماعة في كل الأحوال في ذلك الوسط الذي رسمه له الواقع الايكولوجي.

لذلك نجد كل قصر من القصور الصحراوية يحيط بها سور والسكن داخل الأسوار يعني الحماية والولاء لجماعة القصورية، أما السكن خارجه يعني المخاطرة والفناء.

الرحبة: هي عبارة عن ساحة عمومية تتموضع وسط القصر وهي بمثابة مركز حيوي ومجال عمومي حر، تحيط به البنايات المجاورة غير مغطى وتنظم مجالاته المتعددة بصفتها تؤدي إليها جميع الممرات(الأزقة– القصر) وهي بمثابة الموزع الحركي والمجالي للقصر، تقام فيها مختلف الحفلات والأعياد القصورية الموسمية، ومرتع للأطفال والشباب ومكان لتلاقيهم اليومي لاسيما في الفترة الليلية، وفي السابق كانت مكان التجهيز القوافل التجارية المستعدة للرحيل، ومحطة نزولها عند مجيئها. واليوم هي فضاء للعب بالنسبة للأطفال، تؤدي دور التنشئة في غياب فضاءات أخرى خاصة بهم.

الأزقة: هي عبارة عن ممرات منعرجه ومسقوفة تؤدي إلى مختلف أحياء وفضاءات القصر المختلفة كالمسجد والساحة العمومية، وهي عبارة عن مجالات خطية عمومية تلعب دور المنظم و المؤدي للمساكن وهو نوعان أزقة عمومية نافذة وأزقة نصف عمومية غير نافذة مؤدية إلى الديار المنفتح عليها فقط تتخللها ثقوب لإضاءتها وإرشاد المارة، اتساعها لا يزيد عن متر ونصف مما يسمح بمرور حمارين ومحملين في آن واحد، كما أن لتغطية الزقاق وظيفة اجتماعية وهي مرور النسوة من بيت لأخر دون تغطية أو حجاب، كما انه كان يستعمل قديما للنوم والراحة من طرف الرجال أيام الحر الشديد ومن الأعلى يتقاسم سطحه المسكنين المجاورين اللذان يحصران هذا الحيز. والزقاق شبيهة شكلا وأداء بالساباطات الموجودة في القرى المغربية القديمة، تلك التي بالقرى المنتشرة على طوال وادي ضرعة جنوبي المغرب، فكانت للساباطات وظيفة مناخية واجتماعية وبنائية تلائم أهل المنطقة ونظرا لاعتماد السكان على النخيل و التمور في معاشهم ولان التمر يكثر عليه الذباب لحلاوته، بالإضافة إلى حرارة المنطقة وجفافها فقد أكثر سكان تلك القرى من استخدام السباطات للتغلب على الذباب وتلطيف الجو في شوارعهم فقد كان معظم شوارع القرى مغطاة بالساباطات، ونفس الشيء بالنسبة للأزقة، فهي الأماكن الأكثر استخداما في الشوارع لأنها مظللة فيكثر فيها لعب الأطفال وتجمعاتهم مثلا، هذا بالإضافة إلى الفوائد المناخية لأن الأزقة تقلل من المسطحات المعرضة لأشعة الشمس كما أنها توسعة للناس إذا ضاقت عليهم منازلهم وما إلى ذلك من فوائد لصالح العام، وللأزقة وظيفة بنائية لأنها تربط المباني ببعضها البعض لتكون كتلة واحدة فيسند كل مبنى الأخر.

هذه الفوائد المناخية والاجتماعية لم تأت من فكر المهندسين وأنظمة المخططين، ولكن من تجارب أولئك الذين يعاصرون ويعانون من البيئة ويوجدون الحلول لها فمن تراكم تجاربهم تبلورت الأعراف.

الأبواب: هي كذلك عنصر هام من حيث أنها منافذ المدينة ونوافذها كما أنها تشكل علاوة على وظيفتها التحصينية نقطة وصل بين خارج وداخل المدينة، وحدود فاصلة بين قصبة وأخرى، كما أن وجودها ومكان تموضعها يبين الحدود بين المجالين العام والخاص في المساكن. وقد كانت تغلق ليلا وتفتح نهارا في الحقب الأولى قبل استتباب الأمن وحتى منتصف الستينيات من القرن العشرين حيث استمرت في أداء وظيفتها لغرض تنظيمي، فكانت تفتح في الصباح ثم تغلق بعد الظهر، ثم يعاد فتحها بعد صلاة العصر وتغلق بعد صلاة العشاء حتى لا يخرج بعض الأفراد للواحة للسرقة منها ولذا يتم فتحها إلا في الأوقات التي يكون كل الأفراد في ملكياتهم. وهذا ما أكده لنا مبحوث من قصر **تمنطيط** بقوله "**أنا من لي نعقل كانت باب القصر تنغلق أو تنحل باش الناس مايخرجو بكري يسرقوا في اجنانات**" المقابلة رقم01، أي منذ كان صغيرا يرى هذا الرجل فتح وغلق باب القصر بعد الزوال وبعد العشاء وتفتح صباحاً.

الواحة: تعتبر الواحة كذلك فضاء للعلاقات الاجتماعية ولا يقتصر دورها على الوظيفة الاقتصادية، تتشكل من مجموع الملكيات الزراعية العائلات والأسر تقع بالقرب من القصر. موقعها يأخذ في الحسبان الجانب الطبوغرافي للأرض، وهو الموقع المنخفض عن القصر حيث يتسنى سير الماء الجاري من الفقارة والمار بالقصر. الواحة تشكل جزء من

بنية القصر العامة المرفولوجية والاقتصادية لاستكماله وبنائه المعماري بفضل شجرة النخيل التي تمده بسعفها وجذوعها بصفتها مواد بناء أساسية. و مورد أساسي بفضل مزروعاتها ومصدر غذائي له.

تمثل الواحة فضاء اقتصادي وإنتاجي لسكان القصور خدمة الأرض التي انطوت على عرف اجتماعي اقتصادي هو" الخماسة" و"الخراسة" الذي كان له الأثر في صياغة نظام اجتماعي قائم على تراتبية هرمية.

أما الملكية الزراعية الخاصة للعائلات وحدة إنتاج غير قابلة للانقسام عموما تزيد من تضامن أفراد العائلة مادام أن انقسام العائلة الكبيرة إلى أسر نووية هو ناتج عن تفكيكها إلى ملكيات أسرية على الأخوة أو الأولاد بعد موت الأب أو الجد الأكبر، أو عاقبة صراع بينهم، تمثل وريد أساسي واقتصادي لاسيما بعد تراجع النشاط التجاري في منطقة توات، ومع استتباب الأمن في القصور الصحراوية فأصبح النشاط الزراعي نشاط أساسي فتوسعت الواحات وأصبحت إلى درجة أن تشترك بعض القصور في واحة واحدة بفضل اتساعها، وبدت الواحة فضاء أساسي ومكمل للقصر فلا وجود لقصر بدون واحة والعكس صحيح.

تتشكل الواحة من ثلاث وحدات زراعية متدرجة منخفضة عن القصر والذي يدخل معها في إطار تبادلات، فهي مستودع نفاياته ومصدر أساسي لمواد صناعته الحرفية لتأثيث بيته البسيط.

للواحة وظيفة اجتماعية فهي ليست الواحة فضاء اقتصادي إنتاجي فقط بل تؤدي كذلك دور اجتماعي لاسيما في الفترة الراهنة بعد تراجع محاصيلها الزراعية وإهمالها فأصبحت مركز للاستجمام، فحسب احد المبحوثين وقضاء وقت الفراغ عندهما:"**الجنان هما القهوة والنادي انتاعي ماعندناش نوادي ماعندناش قهاوي**" المقابلة رقم02، كذلك أن الملكية الزراعية لكل ساكن في القصر هي أساس البقاء حتى يتسنى لك المرور بكل أرجاء القصر الذهاب للواحة، إذ يتحاشى القصوري الممر الذي لا يؤدي إلى ملكية زراعية لأنه ينظر انه سارق أو فضولي هذا ما قال لنا احد الشباب وهو ابن مهاجر" ***اشرينا*** **جنان بستان هنا فالقصر لنستريح لان واحد يشوفك(يراك)ماشي من هنا وأنت ما عندك جنان (بستان) وين راك رايح ولا يشوف فيك شوفه**" المقابلة رقم3 بمعنى انه اشترى بستان إلا ليكون له الحق بالذهاب إلى الواحة للاستمتاع بمناظرها، وكما أن الواحة هي أساس وجود القصر(الأرض الخصبة أساس التجمع) فالملكيات العائلية هي أساس الاستقرار بالقصر بصفتها ملكية عائلية ضرورية ومصدر استرزاقها.

وقد شهدت معظم الواحات القصورية هجرات بشرية بعد موجات الجفاف التي اجتاحت معظم القصور الصحراوية، وتحوي الواحة على منشآت الري التقليدية(السواقي القصرية) ومجاري المياه الأرضية الآتية من الفقارة وكذا الأحواض الخاصة بتخزين المياه.

ثانيا. الفضاء المقدس:

المسجد: يعتبر أهم عنصر في مدينة تمنطيط فهو يمثل مركز المدينة وما يعكس هذه الأهمية هو حجمه وموقعه ومأذنته الشامخة ذات الشكل الهرمي، يمثل المسجد المركز الديني والروحي في القصر، يقتضي اختيار المكان الملائم له الذي يراعي في توسطه في قلب القصر وإمكانية جعله ضمن ميدانه ويكون محور تتجه إليه شوارع القرية في شكله المعماري وبرج منارته العالية، لذلك نجد وقوع المسجد في وسط القرية تتطلبها ضرورتان هما: الضرورة الاجتماعية والضرورة التنظيمية، فالضرورة الاجتماعية تعني أهمية بداية السكان نحو مركز القرية لعلو منارته التي ترشد المتوهمين في الصحراء الشاسعة نحو مركز العمران، أما الضرورة التنظيمية فهي افتقار سكان القصر في انتظام حياتهم الروحية إليه.

إن توسط المسجد منازل القصوريين حسب أحد المخبرين(وهو أمام المسجد) بقوله" **يجب أن يكون الدخان المتصاعد من الديار وقت الطياب أي أثناء الطهي أن يسير اتجاه المسجد**" المقابلة رقم 4. أي يجب أن يكون المسجد

وسط الديار حيث أثناء الطهي يجب أن يكون الدخان يتوجه نحوه، وبهذا فالمسجد يعكس التوسط والاعتدال والتساوي بين كل الناس أنهما ملك العامة "دار الله ، دار ربي".

كما أن المسجد يجسد التضامن الاجتماعي والعضوي على الأساس الروحي ويعزز وحدة الجماعة، إنه فضاء للالتقاء اليومي بين الأفراد المصلين بمختلف أعمارهم.

الأضرحة: "يجمع معظم الباحثين في مجال الانثروبولوجيا الدينية ،القدماء منهم والمحدثون،على أن المقدس le é Sacr الذي يشكل جوهر الاعتقاد الديني هو في مظهراته الواقعية مكان وزمان وإنسان، والأضرحة أمكنة مقدسة، لأنها قبور لأناس مقدسين يملكون قدرات خارقة من أجل التوسط عند الله لأجل قضاء حاجات وإبعاد الكوارث والأهوال"[11]، تؤدي هذه المزارات الدينية وظيفة الترياق ضد القلق والتوتر وتمنحهم الطمأنينة المنشودة، وهذا الاعتقاد هو جزء من الثقافة الدينية السائدة والمنسجمة والمتوافقة مع التنظيم الاجتماعي ومع الحس المشترك.

لذلك يحيط بقصر تمنطيط نسيج من الأضرحة البيضاء اللون الشامخة العلو كما توجد كذلك وبشكل اقل وتختلف عن الأولى في أماكن مختلف القصر فقد وجدت في المقابر القديمة وفي الحقول وعلى حافة الطريق وكذا منها ما هو ملحق بالمساجد، شيدت هذه الأضرحة من المواد المحلية المعدة للبناء في المنطقة والتي هي الطين واللبن وطليت بالجير، و يعاد طلاءها مرة في كل سنة بالجير مما يزيد لونها بياضا ناصعا وجدرانها قوة وصلابة إلا أن سقوفها تخلى كلية من خشب النخيل أو مصدر نباتي أخر بل تغطى بالحجر المصفح بطريقة هرمية إلى أن تغلق في الأعلى بقبة[12].

انتشرت هذه الأضرحة على حواشي القصر وفي المقابر مثل ضريح"**سيدي اليازولي**"الذي يقع في الناحية الغربية من قصر تمنطيط، وضريح "**سيدي ناجم**" الواقع من الناحية الشمالية، أما ضريح "**سيدي يوسف**" فهو من الناحية الشرقية للقصر، ناحية ديار الشاذلي، وهي مساكن مهداة من طرف الدولة ولها تصميم معماري واحد، وحسب الذاكرة الجماعية للسكان إن هذه الأولياء تحمي المنطقة (قصر،الواحة) من أي عدوان خارجي (من الغزاة) قديما، لما كان نظام الصعلكة كنظام اقتصادي واجتماعي اشتهرت به القبائل الصحراوية عامة كغيرها من القبائل العربية والبدوية الضاربة في الصحراء والبيداء. ذلك إن الإغارة حدثا حافل في سجل التاريخ الاجتماعي العربي، إلى جانب الأبراج والخندق ككيانات معمارية (فيزيقية مادية) تحمي القصر، كذلك الأضرحة لا يستغنى القصر عن حمايتها، فهم أبطال وجنود الله في أضرحتهم، إلى جانب مايسمى "**رجال البلاد**" بكرامتهم وقواهم الروحية المنبعثة من ثراهم، وهم الموتى المدفونين في البلاد ولو بدون أضرحة، فموقع الأضرحة اختير بعيدا نوعا ما عن التجمع، ليهيب العدو، وذلك لما في نفوس القصور بين منه ثقة ومهابة المضروح.

المقبرة: تتموضع خارج المدينة وتدعى"**المدينة**" بجزم الميم، وهي تشكل مدينة حقيقية للأموات إذ تمتد على مساحة شاسعة، وقد تحتوي على مصلى جنائزي وبها أضرحة، وتوجد بالقصور ذات الحجم الديمغرافي الكبير عدة مقابر،كل مقبرة خاصة بفئة اجتماعية معينة أو أهل، ولا ترضى أن يدفن فيها احد غير موتاها ما لم يشترك معها في نفس الجد أو الفئة الاجتماعية في عالم الأحياء، حيث يستمر ذلك التمييز المجالي حتى في عالم الأموات تأكيدا للهوية والذات.

---

[11] المختار الهراس وإدريس بن سعيد، **التحولات الاجتماعية بالبوادي المغربية**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 2، الطبعة الأولى، 2002، الرباط، ص154.

[12] فالأضرحة من العمائر التي اعتني بتشييدها القصوريين نتيجة تقديس الأولياء حتى بعد موتهم وهي ظاهرة قديمة في منطقة المغرب الإسلامي ولاسيما في منطقة الصحراء. ، فكانت الأضرحة مزارا معتادا يتوجه إليها الناس للدعاء والتوسل ويقومون بطليها بالجير بصفة منتظمة كل عام في ذكرى وفاة الولي المضروح، كما يرقصون ويفرحون بذلك قربها بشتى أنواع الرقص ويمدحون المدائح الدينية في جو مملوء بالفرحة والبهجة والمهابة والتبجيل في يوم معلوم من السنة يسمى يوم" الزيارة".

إن " تموضع المقابر خارج القصر لا يعني الإقصاء، بل يعبر عن التبجيل والاحترام، المقبرة مغذي روحي لأفراد القصر حيث أن الساكن القصوري لما يمر بجانبها يدرك أن مكانه هناك، والأضرحة اللذين تضمهم المقبرة كمعالم روحية تحمي التجمع البشري، فالأولياء هم دائما في حالة يقظة. كما أن أضرحتهم المقدسة تمثل ملتقى لعالمين، هما العالم الدنيوي والعالم الأخروي"[13].

خاتمة :

نشأت عمارة الطين في الصحراء الجزائرية وبالضبط في إقليم توات منذ قديم الزمان، وجرب فيها أشكالاً عدة ليتجنب فيها حرارة وبرودة الشتاء، وحماية محارمه من الغرباء، باستعمال المواد المحلية، لذا نعتت بالعمارة التقليدية والعمارة الصحراوية وأحياناً ،العمارة الطينية، فجاءت ملائمة للبيئة التي نشأت فيها لذا نعتت أيضا بالعمارة البيئية، إلا أن أهم ما يميزها إلى جانب هذه الأوصاف، هي عمارة وظيفية، فالوظيفية دائما هي المحددة للشكل فيها، واختلاف أنماطها عبر الزمن من عمارة بربرية إلى عمارة سودانية ثم عربية أسلامية كان نتاج اختلاف الوظائف المتوخاة منها والتي تتغير من مجتمع إلى آخر، لذا جاءت هذه العمارة مختلفة من زمن إلى آخر رغم أن البيئة التي نشأت فيها هي بيئة صحراوية، أي تربة **تمنطيط**، مما يثبت إن العمارة ليست هي نتاج البيئة وحدها، بل هي نتاج تفاعل بين هذا وذاك، ليست العمارة نتاج العامل المكاني فقط بل هي نتاج البعد الزمني، وما يدخل ضمنه من عوامل سياسية واقتصادية كوجود الأمن من عدمه وشكل الأسرة وطبيعة البناء الاجتماعي والنظرة المتعلقة للمرأة والغرباء ونظرت ذلك المجتمع لعالم الغيب والأرواح كلها لها دور أساسي في تحديد شكل ونمط العمارة، وحتى العوامل الحضارية والتكنولوجية. لكن هل الشكل المعماري يتوقف عند الوظيفة الاجتماعية البيئية ؟ ألا يمكن أن يكون له أبعاد رمزية وثقافية ؟ سيما وأن العمارة هي الثقافة المادية للمجتمع، وإلا كيف نفسر تعدد الأشكال المعمارية رغم أنها يمكن أن تؤدي نفس الوظيفة بشكل واحد، مما يدل على أن للعمارة القصورية أبعاد رمزية وفنية ذات دلالة، هذا ما نتوقع الإجابة عنها من جهود باحثين مختصين–يعملون بصفة جماعية– من تخصصات عدة كالآثار والأنثروبولوجيا والعمران والهندسة المعمارية، حتى نوفي عمارتنا الصحراوية الطينية حقها من الدراسة والبحث، كونها تختزل هويتنا وثقافتنا المادية، بدل من أن نرثيها ونبكي على أطلالها، ويبقى لكل مجتهد مصاب.

[13]D. MASTAPHA. **Les gubba-t des monts des ksours entre le temporales et le spirituels**, Mémoire de magister en architecture, Département. De l'architecture, Université des Sciences et de la tecnologie d'Oran, Thèse de magicter, p24.